خاتمة

خلاصة

حاولت في الصحف السابقة أن أرسم الخطوط المختلفة للأغانى في المدينة في أثناء العصر الأموي، ولاحظت أن المدينة قبل هذا العصر اتخذها النبي صلى الله عليه وسلم داراً لهجرته، واتخذها الخلفاء من بعده مقراً لعاصمة الإمبراطورية العربية، وصبت فيها حينئذ كنوز الأرض، كما صب فيها الموالى من فرس وروم وشآميين ومصريين، وهيأ ذلك كله لحضارة جديدة فيها: أخذ زخرفها يتماثل منذ عصر عثمان.

وما يلبث عصر الخلفاء الراشدين أن يذهب وإذا بالمدينة تدخل في حياة جديدة من جميع النواحى السياسية والاجتماعية والحضارية. أما من حيث الناحية السياسية فقد فقدت زعامتها على العالمالإسلامي وأصبحت ولاية تابعة لدمشق. وكانت تقف طوال العصر الأموي في صفوف المعارضة لبنى أمية، ومن أجل ذلك كان الأمويون ينصرفون عن أهلها فلا يستخدمنهم في وظائف الدولة الكبرى إلا في القليل النادر.

هذا من حيث الناحية السياسية، أما من حيث الناحية الاجتماعية وكذلك الحضارية فإن المدينة أخلدت إلى حياة مترفة، وقد تكونت فيها طبقة من الشبان الفارغين العاطلين، وذهبت هذه الطبقة العاطلة تملأ أوقاتها باللهو، وساعدها على ذلك ماكانت فيه من ثراء، ورثته عن آبائها الذين فتحوا الأمم الأجنبية، وأيضاً فإن الأمويين أغدقوا عطاياهم عليهم هناك، حتى يصرفوهم عن التفكير في الدولة والحكم. شباب عاطل، وثراء وحضارة، وترف ورقيق لا يكاد يحصى. كل هذا عرفته المدينة في العصرالأموى ة وقد وصفت ذلك كله ومضيت منه أبين كيف أن أهلها تعلقوا بضرب من الملاهى، كان له أثره الواسع في أدبهم وشعرهم، وأقصد الغناء وما صحبه من موسيقى، فإن أهل المدينة شغفوا به شغفاً شديداً لى يسلم منه شاب ولا شيخ ولا لاه ولا عابد.

ونهض الموالى من المغنين والمغنيات بهذا الغناء نهضة واسعة، بحيث أصبح فنأ بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، إذ تكونت نظريته نهائياً، وعرفت له مصطلحاته وتقاليده،التي نقرؤها في كتاب الأغاني. وأخرجت المدينة حينئذ كثرة وافرة من المغنيات والمغنين الذين خلد اسمهم

على مر الزمن، مثل طُويس، وسائب خاثر، ومعبد، وعزة الميلاء، وجميلة، وسلاَّمة، وغيرهم كثير.

واقترنت هذه النهضة لفن الغناء بنهضة كبيرة للأغانى التي كانت تُغَنَّى وتُصحب بالعزف والضرب على الآلات الموسيقية، وكانت تدور في أغلبها على الحب وبيان مشاعره وقد عنيت بدرس هذهالأغانيفي المدينة درساً مفصلاً، ولاحظت أنها كانت في أكثر جوانبها غزلاً صريحاً، وخاصة أن الشعراء هناك كانوا يعنون بالغزل في الإماء من المغنيات، فكانوا يصرحون بكل ما يجول في أنفسهم، لا يكادون يتحرجون من شيء.

كان غزل المدينة صريحاً في أكثره، ولكن ليس معنى ذلك أنه انساق كله في هذه الوجهة، فقد كان هناك غزل عفيف نجده عند عباد المدينة وفقهائها، من مثل عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أحد فقهاء المدينة السبعة، وقد وقفت وقفة قصيرة عند غزله، وصورت كيف كان غزلاً عفيفاً فيه مثالية، وفيه طهر وتسام عن المتع الجسدية.

ولاحظت أن هذه الأغاني في المدينة كانت تفترق من النسيب في العصر الجاهلي مفارق واسعة. وأقصد هذا النسيب الذي كان يوضع بين يدى القصائد، والذي كان يتحدث عن الأطلال والدمن، والذي كان لا يتَّخَذُ غاية، إنما كان يتخذ وسيلة إلى غرض الشاعر من قصيدته، فهو أشبه ما يكون بمقدمة موسيقية يسوقها الشاعر أمام غايته. أما في هذا العصر فقد أصبح هو الغاية، إذ لا يضعه الشاعر بين يدى قصيدته إنما يضعه قصيدة مستقلة قائمة بنفسها، ولم تكن هذه القصيدة تؤلف من عشرات الأبيات، بل قد تؤلف من أبيات قليلة لا تتجاوز عدد أصابع اليد إلا في النادر، أما الكثرة فهي أصوات أو قل كما نقول الآن أدوار تؤثف من أجل الغناء. وكان المغنون والمغنيات لا يغنون في أبيات كثيرة، فقد يغنون في البيتين أو في الثلاثة، ومهما أطالوا فلن يزيدوا في غنائهم عن عشرة أبيات، بل كان منهم من لا يغنى إلا في البيتين. من أجل ذلك كله لم يكن من الضروري للأغانى أن تكون طويلة، بل لقد كان أكثرها قصيراً

كانت هذهالأغانيفي الواقع مقطوعات وأدواراً، ولم تكن قصائد بالمعنى القديم للقصائد. وليس هذا كل ما يلاحظ عليها فإنها أيضة كانت تتخذ من اللغة المألوفة للناس، ومن هنا كانت

أكثر من الشعر التقليدي بضربيه المديح والهجاء قرباً منهم، فهي من محيطهم، محيط لغتهم، ومحيط حياتهم، وما فيها من شعر الحب والغزل.

وكان طبيعيا لهذه الأغاني أن تتأثر بالغناء والموسيقى التي كانت ترافقها لسبب بسيط، وهو أن المغنين أدخلوا نغما وألحاناً أجنبية كثيرة، وأحدثوا نظرية عربية جديدة للغناء، مما جعل شعراء الأغاني يحورون ويجرئون في شعرهم وأوزانه تحت تأثير هذه النظرية. وقد عرضت لذلك كله في أغاني المدينة ولاحظت أن موجتها كانت حادة حدة عنيفة في هذا العصر، وأنها أخذت تطرد كل ما تلقاه من موجات الشعر التقليدي، لا في الحجاز، بل في الشام والعراق أيضاً.

ولما تم لى تصوير ذلك وقفت عند الأحوص أكبر شعراءالأغاني في المدينة لهذا العصر، فتحدثت عن حياته أولاً، ثم انتقلت إلى غزله، فكشفت عن خصائصه فيه، وما كان من حريته وتشبيبه الصريح في الإماء وتعلقه بهن، ثم تركت غزله إلى مدائحه وأهاجيه، فتحدثت عن لغة هذه المدائح والأهاجى وموسيقاها، وما كان من أثر الغناء فيها. ولم ألبث أن خرجت إلى بيان منزلته شعراء عصره. وقد ذهبت أدعو إلى اتخاذ مقاييس جديدة غير مقاييس القدماء في الحكم على الشعراء في العصر الأموي حتى نستبين حقيقة فن الشعر حينئذ، ونتعرف على أهم الشعراء الذين تطوروا به في معانيه وألفاظه وموضوعاته وأوزانه. ومن أجل ذلك رفضت حكم ابن سلام في طبقاته، إذ قدم أصحاب الشعر التقليدي على أصحاب الأغاني، وقد جعل الأحوص وأكثر الغزلين في الطبقة السادسة من طبقات الإسلامي!، وهم الذين نسميهم الأمويين،

والحق أن أصحاب الأغانفى في هذا العصر هم الخليقون أن يوضعوا في الطبقات الأول من الشعر الأمويالإسلامي. وليس من شك في أن الأحوص يوضع في المرتبة الأولى من هذه الطبقات فهو شاعرالأغاني بالمدينة في هذا العصر غير مدافع.

ولما أنهيت الحديث عن المدينة وأغانيها وشاعرها الأحوص أخذت في رسم صورة صحيحة صادقة لمجتمع مكة في العصر الأموي وما ازدهر فيه من أغان تغنت بها الأجيال المعاصرة والتالية. وذهبت أبحث أصول الحياة في هذا المجتمع وجذورها منذ العصر

الجاهلي، حتى تتبين لى هذه الحياة من جميع وجوهها، وحتى تكون الخطوط والألوان التي أصنع منها الصورة غير ملتبسة ولا مكتسية بإبهام أو غموض.

ولاحظت أن الترف الذي أصيبت به مكة في العصر الأموي لم يكن شيئاً حادثة، فقد كان بها في الجاهلية حياة تجارية خصبة ملأت حجور كثير من القرشيين بالمال والثراء المفرط. على أن الإسلام لم تلبث أضواؤه أن ظهرت في الأفق وأخذت تعم الجزيرة العربية وسرعان ما حمل المسلمون مشاعلها يريدون أن يضيئوا بها العالم، فكانت الفتوح الإسلامية، وكانت مغانم لا تحصى من أموال ورقيق وجور وصب ذلك كله في مكة، وصبت معه الحضارات الأجنبية وما لونها في بيئاتها الأصلية من ترف.

وكان من آثار هذا الترف والتحضر أن نما الغناء، وأن أخذ بعض المغنين يحاول أن يخضعه لرسوم وتقاليد، فكانت النظرية الغنائية المبثوثة في كتاب الأغاني، حين نجد أبا الفرج يعلق على الصوت بقوله مثلا: ثقيل أول أو ثقيل ثان أو خفيف رقل ونحو ذلك مما عرضنا له في موضعه. وما زال المغنون في مكة والمدينة يصعدون على مراقى هذه السلالم الموسيقية، كل يحاول أن يصل إلى مراقى الغناء العليا، حتى حققوا لأنفسهم كثيرا من التفوق والنبوغ.

وقد تغيرت الحياة في مكة، إذكان الفرد يشعر بنفسه شعورا تاما، فقد أصبحت الدنيا ملكاً له ولقريش، وأصبح البيت القرشى يعج بالرقيق الأجنبي، ولم تعد في مكة تجارة إلا ما قد يكون في أثناء الحج، أما التجارة القديمة التي عرفناها في الجاهلية، فقد قضى عليها الإسلام حين استولي على العراق والشام، فانفتح أمام توابل الهند وصادراتها طريق الموصل، ولم تعد هناك حاجة إلى الطريق المعقد، طريق مكة القديم.

ومع ذلك فمكة عرفت في العصر الأموي ثراء لم يعهده أهلها في القديم، وهو ثراء جاءها من الفتوح الإسلامية ومغانمها وأسلابها، ثم من هذا العطاء المنظم الذي فيرض لأهلها منذ عمر بن الخطاب. ومن هنا تكونت في مكة طبقة من الشباب العاطل الذي لا يعمل في تجارة، فقد أغناه آباؤه الذين اشتركوا في الفتوح الإسلامية، وأغناه العطاء المنظم الذي يرد من دمشق.

وعلى هذا النحو تكون في مكة جيل الشباب العاطل الفارغ الذي لا بد له من ملهاة أو تسلية يمضى فيها أوقاته. واستطاع الرقيق الأجنبي أن يرضى رغبته عن طريق هذا الغناء الذي وصفناه وما استحدث فيه من ألحان وإيقاعات وأنغام.

واندفع الشباب في إعجابهم بهذا الفن وأصحابه واندفعت معهم المرأة القرشية، وأخذت تلمع حينئذ أسماء بعض الفتيات والسيدات ككل المجتمعات المتحضرة الراقية، فأصبح هناك الرجل الذي يأخذ بيد هؤلاء المغنين، كما أصبحت هناك المرأة التي تأخذ بيدهم أيضاً.

ترف وغناءصص فف! ا مجتمع مكة في العصر الأموي، وفى أثناء ذلك اعتداد بالنفس وشعور بالغ بها، فأى شعر يسود في هذا المجتمع؟ أيسود الشعر التقليدي الذي يمجد الآخرين على نحو ما نعرف في المديح؟ طبعا لا يمكن أن يسود مثل هذا الشعر الذي يغنئ بالآخرين، وكذلك لا يمكن أن يسود قرينه من شعر الهجاء والنقائض الذي نجده عند جرير والفرزدق، فقد كان القوم مترفين، ولم تكن في نفوسهم كل هذه الحزازات الجاهلية التي كانت في نفوس أهل العراق من القبائل العربية.

ولم تغرف مكة في الجاهلية بشيء من هذه الحزازات، بل لقد كان أهلها يعملون على موتها إبان ظهورها، ولعل مرجع ذلك أنم كانوا يعيشون معيشة فيها شيء من التحضر، ولذلك كانت أكثر أشعارهمالتيرو يت لهم في السيرة أشعاراً فردية تعبر عن شعور القرشى إزاء حادثة من الحوادث. ومعنى ذلك أن القرشيين كانوا معدين منذ العصر الجاهلي للأغانى وشعر الحب بأكثر مما اعدوا للشعر التقليدي.

فلما كان الإسلام وجدنا أبا دهبل الجمحي ينظم شعرا لا يكاد يختلف في شيء عن شعر عمر بن أبى ربيعة، وعاش أبو دهبل أشواطاً من الزمن في العصر الأموي. كل شيء كان يعد إذن لنموالأغانيوشعر الحب في مكة، فهناك أصول قديمة أعدت له، وقد أعدت له أيضاً هذه الحياة المترفة التي عاشها القرشيون في العصر الأموي وأعد له أيضة شعور الفرد بنفسه وإحساسه بها إحساساً قوياً في هذه الحياة. وكان مما أعد له أيضاً أن المرأة القرشية ساهمت في العناية بفن الغناء الذي يقوم عليه. وكان للمغنين أنفسهم أكبر الأثر في نمو هذه الأغاني وتطورها، فإنهم طلبوها. وطلبتهم النوادى والمجالس. فكان لا بد أن يوجد الشعراء الذي ينهضون بحاجة المغنين وحاجة الناس من حولهم، وحاجاتهم أنفسهم في إرضاء المغنين من

جهة والتعبير عن إحساساتهم من جهة أخرى، ثم حاجة المرأة القرشية وإرضائها من حيث الثناء على ما أوديت من جمال حسن.

كان كل شيء في مكة يدفع إلى نمو الأغاني، وأن يحسنها الشعراء إلى أقصى حدود الإحسان وأن يطوروها مع فن الغناءالجديد إلى أقصى حدود التطور، ولمعت حينئذ أسماء كثيرين عرضنا بالتفصيل لاثنين منهم وهما: ابن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات. وكان يشتهر بجانبهما الحارث بن خالد المخزومي والعرجى، غير أن ما روئ لهما من أغان محدود جداً، كل أغاني الحارث تقريباً في عائشة بنت طلحة، تارة يتغزل بها مباشرة، وتارة يتغزل بها عن طريق جاريتها بسرة تعريضاً [١]، وليس في هذا الشعر جديد بالقياس إلى الموجتين الحادتين الكبيرتين: موجة ابن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات. وكذلك الشأن في العرجِي حفيد عثمان بن عفان، فقد أضاع الر واة أغانيه إلا مقطوعات نظمها في أم محمد بن هشام المخزومي والى مكة لابن أخته هشام بن عبد الملك، وأخرى في زوجة محمد بن هشام [١]، وهي جميعها يراد بها الهجاءلا الغزل الصادق. وقد اشتهر له قوله في جيداء أم محمد بن هشام [٢]

وأَدنتْ على الخَدين بردا مهلْهلا أماطتْ كِساء الخَز عن حر وجهِها

من اللاءِ لم يحججن يبغين حِسبةً ولكن ليقتلْن البرئَ المغفَّلا

ويجمع الرواة على أن العرجِي خلف عمر في مكة وأنه كان يحتذى علىمثاله[٣]! ولكنهم لم يحتفظوا لنا بما يصور ذلك من شعر العرجِي وغزلياته.

أما ابن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات فقد خلد لكل منهما على مر الزمن ديوان كبير يصوره ويصور مجتمعه خير تصوير، واستطاع ابن أبى ربيعة أن ينهض حقاً بالأغانى، فديوانه كله نسجت خيوطه من قصة القلب الإنسانى، وهي معروضة في قصص بديع. وعمر من هذا الجانب يتقدم جميع الشعراء في العربية فلا نعرف قبله ولا بعده من نحا بغزله كله نحو القصص، وملأ ديوانه بعوالم من واقعه وخياله جميعاً، فقد اتحد في ديوانه الواقع والخيال، واستطاع بمواهبه الفنية أن يؤلف منهما مادة فنية بديعة.

---

[1] أغاني ٣/٣١٧ وما بعدها وكذلك ٣/٣٢٩، ٣٣٥.

[1] غانى١/٣٨٥، ٤٠٤-٤٠٨.

[2] أغاني ١/٤٠٤.

[3] أغاني١/٣٨٥.

على أن الغاية من هذه الأشعار والأقاصيص وأنها أريد بها إلى الغناء جعلت عمر لايطيل فيها، فهو ليس من أصحاب القصائد المطولة، وإنما هو من أصحاب المقطوعات التي تغنى، ولذلك قلما تجد عنده قصيدة بالمعنى الكامل. وحاول عمر في أثناء هذه الغاية الغنائية أن يحقق لموسيقى شعره ضروبا من التلاؤم بينها وبين الغناء، وكأنها كانت تصنع من نفس الألحان والأنغام التي يصنع منها االغناء، وكان من آثار ذلك أن كثرت التجزئة والتعديل في شعره، وأن خفت لغته خفة شديدة.

وكأنما كان عند عمر هدف واضح أن يحقق لمعانى غزله ضروبة من التطور عن طريق هذه الخيوط القصصية التي نسجه فيها، وليس ذلك فحسب، بل أيضاً أن يلمس قلوب الناس وأفئدتهم بما يقطر في شعره من عواطفهم، وهي عواطف قوم تحضروا، وأصبح لهم ذوق جديد يتلاءم كل متحضرين من بعدهم. ولعل ذلك ما جعله يختار اللغة الخفيفة السهلة اللينة التى!برى على كل لسان. وليس ذلك ما صنعه عمر فحسب، فإنه أيضاً استطاع أن يلائم أوسع ملاءمة بين شعره وبين ألحان المغنين وإيقاعاتهم حتى لكأنه كان ينظم شعره على الآلات الوترية نفسها التي يضربون عليها.

وكان يعاصره ابن قيس الرقيات ولم يهب نفسه كلها للأغانى وشعر الحب، فقد خرج من مكة واضطرب في الحوادث السياسية التي نشبت بين مصعب بن الزبير وأخيه عبد الله من جهة وعبد الملك بن مروان من جهة أخرى. ومع ذلك فهو يعد شاعرا موسيقاً من طرازممتاز، لا من حيث أغانيه فحسب بل أيضاً من حيث ما نظمه من مدائح ومراث، إذ استطاع أن يحول كل ما نظمه من شعر تقليدي إلى أغان. وهنا تظهر مهارة ابن قيس فإن الطاقة الموسيقية في شعره كانت توية إلى أقصى حد. وطبيعي أن نجد عند ابن قيس شيئاً من الأساليب التقليدية بحكم اهتمامه بالشعر التقليدي ولكنها نادرة جداً، فقد جعل نصب عينيه أن يترك هذه الأساليب وأن يضع مكانها الأساليب الموسيقية التي تتلاءم وعصره. ومن هنا قلنا إن شعره كله موسيقى بالمعنى التام، فهو شعر كتب ليغني فيه المغنون لا لينشده المنشدون.

وتميز ابن قيس بذوق حضرى مترف حساس بالغ الحساسية، فلم يهجع أحداً، ولم يحاول أن يؤذى شخصة، وكان في غزله بل في شعره كله رشيقاً منتهى ما يكون من رشاقة، وهي رشاقة مردها إلى هذا الذوق المترف الذي عرف كيف يصهر الشعر في ألحان المغنين،

وكأنما كانت لديه حاسة سادسة يستقرئ بها في دقة الألفاظ بل المعانى التي تدل عليها الألفاظ، أو هما. جميعاً.

والحق أن أصحاب الأغاق في مكة وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة وابن قيس الرقيات استطاعوا أن يحققوا لشعرهم كل ما يمكن من نهوض ورقي به، وإن أسماءهم ماتزال تظن في سمع اللغة العربية، بل في سمع الموسيقى العربية، فهم الذين نهضوا بهذه الموسيقى حقاً من حيث المطابقة بينها وبين أوزانهم، فقد عاصروها في بدء نشأتها حينما تحولت إلى النظرية المعروفة في كتاب الأغاني، واستطاعوا أن يقدموا للمغنين والمغنيات كل ما احتاجوه لفنهم الجديد، وأن يشتقوا لأنفسهم في أثناء ذلك أساليب فنية بارعة، تعبر عما أصاب الحياة عندهم من تطورات تحت تأثير الحضارات الجديدة.